



عناصر لنظرية الأجناس

فرانسوا راستي

Elements of the theory of genres

By François Rastier

عبد الرحمن بوعلي*

قسم اللغة العربية، جامعة الشارقة-الإمارات العربية abouali@sharjah.ac.ae

تاريخ الإرسال:

2020-04-02

تاريخ القبول:

2020-07-23

تاريخ النشر:

2021-06-02

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بمفهوم الجنس الأدبي، هذا المفهوم الذي تناوله بالدراسة باحثون من شتى العصور والأزمنة، ومن مختلف التخصصات منذ أرسطو إلى الزمن الراهن. وقد عالج فرانسوا راستي هذا المفهوم الرائج جدا في أعمال النقاد والدارسين والمحللين، وقدم تحليلا مفصلا لقضايا المعقدة. ويمكن لنا أن نعتبر تحليل راستي تحليلا دقيقا ومتكاملا.

كلمات مفتاحية: الأجناس الأدبية؛ النظرية الأدبية المعاصرة؛ فرانسوا راستي.

Abstract: This study aims to introduce the concept of literary genre, this concept which was studied by researchers from different eras and times, and from various disciplines from Aristotle to the present time. François Rastier addresses this very popular concept in the work of critics, scholars, and analysts, and provides a detailed analysis of his complex issues. We can consider Rastier's analysis to be accurate and integrated.

Keywords: Literary Genres; Contemporary Literary Theory; François Rastier.

إذا كانت قضية الأجناس الأدبية قد تم تناولها من قبل الشعرية، فإن اسم هذا الاختصاص يشير إلى الأدب عادة؛ في حين، وبعيدا عن ذلك، فهو يشكل مجموعة

* المؤلف المرسل

من المعايير ومن طرق الاستخدام اللغوية، الشفوية أو الكتابية، الفنية أم غير الفنية، التي تتعلق بما يمكن تسميته بالشعرية المعممة. وإذا ما ابتعدنا قليلا عن الشعرية الأدبية، فسندرى أنها يجب أن تقوم بمهمة جديدة: وهي مهمة وصف تنوع الخطابات (الأدبية والقانونية والدينية والعلمية وغيرها) وصلة هذه الخطابات بالأجناس. إن التحدي ليس صغيرا، ذلك لأن النصوص تتأسس على حالات ملموسة تتشارك فيها. وعلاوة على ذلك، فمن خلال العلاقة بين الأجناس والخطابات، فإنها تتعالق مع الممارسات الاجتماعية حيث تشكل وضعيات التلفظ والتأويل محطاتها.

1. المنهجية والأخلاق

1.1. المقارنة والأجناس: الأنماط السبعة: يُميّز بين سبع مبادئ للمقارنة. (أولا) أنماط اللغات، بالطبع (ثانيا) فإن كل لغة، وفي مختلف مراحل تاريخها، تعرف استخدامات خاصة بأنواع من الممارسات الاجتماعية؛ ولكي نقف على ذلك، من المطلوب صياغة تصنيف للخطابات. (ثالثا) كل خطاب يمتلك عددا محددا من الأجناس، حيث تتيح عملية التصنيف الوقوف على التنوع الخارجي للنصوص. (رابعا) تقوم عملية تصنيف النصوص بمعالجة التنوع الداخلي للأجناس. (خامسا) وتقوم عملية تصنيف أجزاء النصوص بمعالجة المقاطع (أقسام النصوص التي تحددها معايير التعبير) وطريقة تشكيل النص (أجزاء النص التي تحددها معايير المحتوى). (سادسا) عملية تصنيف المورفولوجيات تقوم بمعالجة القرابة بين النصوص، بغض النظر عن قضية الأجناس: فهناك في النصوص يوجد "معجم" من الأشكال الدلالية، بعضها تم الاعتراف به وجرده في التقاليد البلاغية والشعرية (الصور الإستعارية، على سبيل المثال)، ولكن أشكالا دلالية أخرى أيضا لم تتم تسميتها بعد مثل الجزيئات السيمية les molécules sémiques (وهي بنى ثابتة لميزات دلالية، ليس لها بالضرورة مميزات معجمية مميزة). ويمكن لهذا التصنيف أن يتجاوز الحدود اللغوية (وعلى سبيل

المثال الزخارف الفلكلورية). (سابعاً) وأخيراً، فإن عملية تصنيف الاستعمالات العامة تميز طبقات المستخدمين أو "الأساليب".

2.1. المفاهيم الثلاثة للجنس الأدبي: وعلى الرغم من أنها كثيراً ما يتم الخلط

بينها، فبالإمكان التمييز بين ثلاثة تصورات للجنس: الفئة *la classe* والنوع *le type* والسلالة *la lignée*. فالتصور التصنيفي يجب (أولاً) أن يواجه كل مشاكل التصنيفات المألوفة، وليس أقلها تغيير المعايير. و(ثانياً) ينبغي على التصور النموذجي أن يُميّز العلاقة بين النوع والتمظهرات *occurrences*. ومع ذلك، فأنواع النصوص هي نماذج افتراضية، وتحولاتها تأخذ معناها حين ترسخ النوع وفي نفس الوقت تحيد عنه. علاوة على ذلك، لم تتمكن أية نظرية للنوع من تشكيل دلالة لتغيير الاختلافات الدلالية في وجه الأنواع. فقد قامت نظرية النماذج *prototypes* فعلاً بإضفاء الغموض على التصنيفات، لكن دون الوصول إلى وصف لهذا التحول، ذلك لأنها لا تصف العلاقة بين النماذج المركزية والهامشية إلا بقياس كمّي لعدد المميزات.

إن المفهومين الأوليين للجنس، الفئة والنوع، ينبثقان من الإشكالية المنطقية والنحوية: الأولى تنبثق من المخيال التصنيفي للنحو. والثانية، تنبثق من المنطق.

3.1. بيان أن الأجناس ليست "أنواعاً من النصوص": لنتجنب الخلط بين "أنواع

النصوص" والأجناس. فأنواع النصوص هي فئات لا تستند إلا على معيار واحد. فعلى سبيل المثال، تتميز أجناس ديوميديس *genera de Diomède* الشهيرة تبعاً للمعيار التلفظي: فوحده الشاعر يتحدث، ووحدها الشخصيات تتحدث، أو أنها تتناوب في أحاديثها. إن الامتياز الكبير الذي منح لهذا المعيار أعاق بذلك تطور الشعرية الكلاسيكية إلى وقت هيغل، كما أعاق التصنيف اللغوي للأجناس منذ بنفنيست *Benveniste*.

وبالمساواة بين نظرية الأجناس وتصنيف النصوص، ننسى أن تعريف نوع النص يعتمد على المحلل: فلنلبية احتياجات قضية أو من أجل تطبيق، يمكنه أن يخترع نوعاً

ما بإمكانه تقسيم مدونة ما (رواية أنا أو هو، نصوص طويلة أو قصيرة، وما إلى ذلك). ويركز معارضو دراسة الأجناس على نسبية بل وعلى غرور مثل هذه الأنماط. يجب على الشعرية بالتأكيد إنتاج وترتيب أولويات معايير وصفية، ولكن البحث أساسا عن تفاعلاتها. فالأجناس محددة ليس عن طريق معيار واحد، ولكن عن طريق مجموعة من المعايير. فطابع الموضوعية لديها ينتج من تعددية هذه المعايير، والمعايير الجديدة المقترحة في لسانيات المدونة لا تطبق على نحو فعال إلا بحسب الفروق بين الأجناس، وتؤكد لها بدل أن تنفيها.

ويعرف الجنس فعليا (أولا) بتماسك مجموعة من المعايير، سواء على صعيد المدلول أو الدال، و (ثانيا) بتأثيره على التناص، على هذين المستويين أيضا. وأيضا، فإنه يحدد نوع العلاقة هذا بين مستوى الدال ومستوى المدلول الذي يمكننا تسميته بصيرورة المعنى النصي *sémiosis textuelle* (أنظر أدناه).

ما يهمنا ليس هو تصنيف أنواع النصوص، ولكن تصنيف الأجناس. لكن هذا التصنيف تابع لتصنيف الخطابات. فوجود أجناس عابرة للخطابات *transdiscursifs* يبقى مشكوكا فيه، ذلك لأن مجاورة أنواع أخرى (أو في حالة الأنواع المدرجة، وسياقات الإدراج الأخرى) تكفي لتغييره: فالرسالة الخاصة تختلف بطبيعة الحال عن نقلها المؤسلب داخل الرواية.

ومن أجل دلالة للأجناس، يمكننا البحث عن معايير للعلاقة بين المكونات الدلالية، مثل التالية على سبيل الإشارة: موضوع مفتوح / مغلق، مركز / منتشر، جدلي منظم، جدلي غير منظم، ذكي، موجه، سلبي أو إيجابي، حوارى متغير أو غير متغير؛ الخ. إننا نسعى لتوصيف أنماط تشاركها في الاختلاف، فالجنس يتم تعريفه على أنه نمط مسمى للتفاعل بين المكونات. وتركيبية المكونات ليست حرة، ذلك لأن تركيبات ممكنة كثيرة لا يعترف بها.

4.1. الأجناس الأدبية والسيميويزيس النصي¹ sémiosis textuelle: عادة ما

يعرف السيميويزيس بمستوى العلامة، وباعتباره نتيجة للعلاقة بين الدال والمدلول. ولكننا لا نتساءل البتة عن المستويات العليا، كما لو أن معناها يتحدد من خلال تأليف معنى العلامات. غير أن الجنس يحدّد على وجه التحديد علاقة مسماة بين الدال والمدلول على المستوى النصي: فعلى سبيل المثال، وفي حالة جنس المقال فما يوافق عادة الفقرة الأولى (على مستوى الدال) هو المقدمة (على مستوى المدلول)؛ وفي جنس حالة القصة، سيتعلق الأمر بالوصف بالأحرى.

بالإضافة إلى أنظمة إنتاج وتأويل النصوص التي لها علاقة بالجنس الأدبي، فإن صيرورة المعنى النصي تحدد، على ما يبدو، طريقة المحاكاة. وعموما، كلما كانت العلاقات بين مستويي النص مقننة، كلما كان أثره الحقيقي (التجريبي أو المتعالي) مكثفا، كما يتضح من خلال النصوص المأثورة أو الدينية. لذا فالجنس هو إذن العامل الأساسي في صيرورة المعنى النصية. وفي حالة بعض الخطابات، مثل الخطاب الأدبي، يمكن إعداد وتطبيق معايير إضافية (راجع "أساليب الكاتب")؛ ولكن، سواء من أجل تخصيصها أو للطعن فيها، فهي تعتمد على معايير عامة.

5.1. الشعرية تبدأ عند مستوى الخطاب: في تصنيف مسبق للأجناس الأدبية،

يُفضّل البحث عن المحاور التصنيفية التي تعتمد على الخطابات. ويبدو مشروع التصنيف العابر للخطابات transdiscursive وهميا، حين تكون الأجناس متعلقة بالخطابات. فكل خطاب، يمكن مقابله بنظام أو مجموع توليفي أجناسي. وكل مجموعة من الممارسات الاجتماعية المقابلة لخطاب معين تنقسم إلى أنشطة محددة (مثلا: لجنة أطروحة، أو مؤتمر، أو درس، أو تصحيح مسودة، وما إلى ذلك)، لكل منها أجناسها الخاصة بها. ولربط الأجناس بالخطابات، تضطلع الشعرية العامة بمهمة دراسة المجاميع التوليفية symmories في خصوصيتها وتطورها المشترك.

6.1. الأجناس العليا والأجناس الفرعية: إن كل تصنيف، وهو يدعي أنه يعكس "طبيعة الأشياء" يجد أمامه المشاكل التقليدية للأنطولوجيا، ذلك لأن الأنطولوجيا الغربية تشكلت من خلال مشكلات التصنيف catégorisation التي طرحتها في البداية نظرية الوعظ prédication الصحيحة. وعلى النقيض من ذلك، يمكن أن نعتبر الجنس الأدبي بصفته المستوى الأساسي في تصنيف النصوص، وذلك لثلاثة أسباب مقاربية. (أولا) لا توجد أجناس عليا (أي لا وجود لجنس الأجناس)، ذلك لأن معايير الجمع بين الأجناس هي الخطابات والممارسات التي تتوافق معها. أضف إلى ذلك، أن الفئات الكبرى للتعبير، مثل النثر أو الشفوي، تقود إلى تركيبات لا طائل منها (فليس للشفوي، بطبيعة الحال، من الحكايات القصيرة الطريفة إلى رسائل الهجاء، وحدة أكبر من النثر). (ثانيا) أن أقسام الأجناس هي نفسها ذات صلة بهذه الأجناس: وعلى سبيل المثال، فالوصف الاستهلاكي في قصة القرن التاسع عشر ليست مجرد حالة وصف description. (ثالثا) إن الأجناس الفرعية مثل رواية "التكوين" أو الرواية البوليسية يتم تحديدها من خلال مختلف القيود التي تهم سواء مستوى التعبير (على سبيل المثال، الرواية التراسلية، والمقال المنظوم) أو مستوى المدلول.

2. من المدونة إلى التناص intertexte: يظل التمييز العقلاني للأجناس شرطا مسبقا لتكوين مدونات قابلة للاستعمال كلية في مهام الوصف اللغوي. ومهما كانت المعايير المختارة، فإنه لا يمكن جني فائدة كبيرة من مدونة غير متجانسة، ذلك أن خصوصيات الأجناس يلغي بعضها بعضا، وما يبقى من تباينات يتعذر إيجاد تفسير له بغية تمييز النصوص.

1.2. مستويات السياق والتناص: يعتمد التأويل أساسا على الوضع [أو التضمين] في السياق contextualisation، فينقل المقطع المعني، مهما كان قصيرا. فقد يكون (أولا) مجرد كلمة يربطها بالكلمات المجاورة لها، أو (ثانيا) يربط الفقرة بالفقرات الأخرى

في النص ذاته، وأخيرا (أو ثالثا) إن أيا من أنواع التضمين في السياق الثلاثة هذه ليست بالاحتمية، بمعنى الإخضاع للذكاء الاصطناعي الذي يفترض وجود مسار خطي من كلمة إلى أخرى. إن استذكار السياق الأول يمكن أن يكون إلى الوراء. أما الالتئان الآخران فهما أقل تقييدا من قبل خطية النص أو النصوص التي هي موضوع تقاربات. وسواء تعلق الأمر باستذكار السياق أو بإعادة استذكاره، ففي جميع الحالات فإن ممارسة التقريب تولد المعنى الذي لا مفر منه.

إن هذا المبدأ المتعلق باستذكار السياق هو المبدأ الأساس في التناص: ففترتان من نصين مختلفين، مهما قصُرا، ولو اختصرا في علامة واحدة، ينتقيان بشكل متبادل، حين يوضعان جنبا إلى جنب، عناصر معنى (السمات المكتسبة *sèmes*). إن هذا التبادل يحدد بإفراط معناهما (عن طريق تحديث و/ أو نشر الصفات ذات النشر). وفي مستوى أعلى من ذلك، يمكننا صياغة مبدأ لجامع النص *architextualité*: أي أن أي نص يوضع جزئيا داخل مدونة ما يتلقى تحديدات دلالية، ويقوم بتغيير معنى كل نص من النصوص التي تكونه.

2.2. المسارات التناصية *Intertextual*: من الأخلاق التي أدت إلى تكوين المدونة تنشأ بالطبع مسارات التأويل داخل هذه المدونة، وتنشأ صيغ التناص. والمسارات المفضلة تمتدُّ أولا بين النصوص التي تنتمي إلى نفس التوجه *lignée*، ثم بين نصوص نفس الجنس، ثم بين الأجناس التي تنتمي إلى نفس الخطاب. إن العلاقات بين الخطابات لا تكون أبدا مباشرة، لكن تكون دائما عن طريق وساطة التبديلات (انظر على سبيل المثال صورة الخطاب القانوني في روايات بلزاك). أما العلاقات داخل الجنس الأدبي فإنها تهيمن داخل التوجهات، مثلما تهيمن داخل الخطاب: فعلاقات جنس بآخر تفترض أيضا التبديلات (تشمل التضمينات *les inclusions* والمقولات

les citations وغيرها). باختصار، فإن المسارات التتاصية سواء منها التكوينية أو التأويلية تنشأ بشكل تفضيلي بين النصوص التي تنتمي لنفس الجنس.

3.2. الأجناس والوساطات الرمزية: الأجناس وسائل (أولا) للوساطة الرمزية (على

النحو الذي اقترحه كليفورد غيرتز Clifford Geertz، 1972) التي تربط الفرد بالمجتمع، و(ثانيا) للوساطة السيميائية، تلك التي تفصل بين المادي والتمثيلي. فالشعرية المعمة تشمل في مجموعها الوساطة الرمزية: فالجنس يشمل في الوقت نفسه الطابع العام للعمل الفردي الاجتماعي والقانون الاجتماعي حيث يتخذ مكانه. فعدم الانتماء بعد إلى المجتمع، مثلما هو حال الطفل الذي يتعلم الكلام، أو أن يطرد منه مثلما هو الحال بالنسبة للمستلب، يعود إلى استخدام الأجناس الفردية idiosyncrasiques. وبعبارة أخرى، يمكن اعتبار الجنس ذلك المكان السيميائي للذاتية الداخلية l'intersubjectivité حين تكون واسطتها القانون.

ومثلما تشكل الأعراف الاجتماعية أساسا لفهم الأفعال الفردية، فإن دراسة الجنس تأخذ أهميتها الكبرى عندما تسمح لنا بإدراك الطابع الفريد للنصوص. فالشخصية تتشكل في الاستعمال الفريد للأجناس، في حين ترسم الأجناس، بصفة مضمرة، عن طريق المواقف التلفظية والتأويلية التي تقوم بتفسيرها، الشخص باعتباره مجموعة من الأدوار الاجتماعية.

مصدر النص المترجم كتاب:

RASTIER, François. *Éléments de théorie des genres. Texto !* juin 2001 [en ligne]. Disponible sur : http://www.revuetexto.net/Inedits/Rastier/Rastier_Elements.html

¹ السيميوزيس النصي: نترجمه بصيرورة المعنى وعند آخرين يترجم بالتمعن (المترجم).